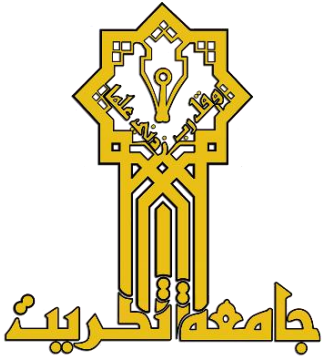




جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

المهور منذ الجاهلية وحتى العصر العباسي

إعداد

أ.د: عدي سالم الجبوري

أولاً: المهر في العصر الجاهلي

عرف العرب المهر قبل الإسلام بوصفه جزءاً أساسياً من عقد الزواج، غير أن طبيعته كانت تختلف عن المفهوم الإسلامي اللاحق. فقد كان المهر يُدفع غالباً إلى ولي المرأة، لا إليها، وهو ما يعكس طبيعة النظام الأبوي، حيث كانت المرأة خاضعة لسلطة الأسرة، ويتصرف وليها في شؤونها المالية.

ومن أبرز الشواهد على ذلك ما عُرف بـ "الحلوان"، وهو المهر الذي يأخذه الأب لنفسه، وقد شاع هذا السلوك حتى أصبح ظاهرة اجتماعية، بدليل قول إحدى النساء في مدح قومها: "لا يأخذ الحلوان من بناتنا". كما تعكس بعض الأشعار تصور الزواج بوصفه نوعاً من البيع، ومن ذلك قول الأعرابي: "يقولون تزويج وأشهد أنه هو البيع إلا أن من شاء يكذب"، وهو ما يؤكد حضور البعد التعاقدي ذي الطابع المادي في الذهنية الجاهلية.

وتؤكد الأشعار أيضاً تعدد ألفاظ المهر وتنوع دلالاته، كما في قول الشاعر: "صدّق ومهر نحلة وفريضة حباء وأجر ثم عقر علائق"، مما يعكس رسوخ هذا المفهوم في الثقافة العربية قبل الإسلام. كما ورد في الأمثال الشعبية ما يدل على طابعه المادي، مثل قولهم: "أُحمق من الممهورَة إحدى خدمتيها"، وهو تعبير عن استنكار قبول مهر تافه.

وتشير الروايات التاريخية إلى تفاوت كبير في المهور بين القبائل؛ فقبيلة كندة مثلاً عُرِفَت بغلاء مهور نسائها، إذ كان المهر قد يصل إلى مائة من الإبل أو أكثر، وقد يبلغ ألفاً في بعض الحالات، مما يعكس ارتباط المهر بالمكانة الاجتماعية والقدرة الاقتصادية للقبيلة. ومع ذلك، لم يكن هذا

النموذج عاماً، إذ وُجدت مواقف اجتماعية تنتقد استحواذ الولي على مهر ابنته، مما يدل على وجود وعي أخلاقي محدود بحق المرأة، وإن ظل غير مؤسس قانونياً.

ثانياً: المهر في عصر الرسول ﷺ

جاء الإسلام ليحدث تحولاً جذرياً في مفهوم المهر، فنقله من كونه مقابلاً مادياً يُدفع للولي إلى كونه حقاً خالصاً للمرأة، وعطية شرعية ذات طابع تكريمي. وقد أكد القرآن الكريم هذا التحول بقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾، بما يفيد وجوب دفعه للمرأة مباشرة دون وسيط أو استغلال.

كما شدد الإسلام على حماية هذا الحق، خاصة في حالات الضعف الاجتماعي مثل اليتيمات، كما ورد في رواية السيدة عائشة رضي الله عنها التي بينت فيها أن الولي قد يرغب في الزواج من اليتيمة طمعاً في مالها وجمالها دون إعطائها مهر مثلها، فجاء النهي القرآني عن ذلك لضمان العدل.

ومن أبرز الشواهد النبوية التي تعكس التيسير وتقليل الطابع المادي للمهر، قوله ﷺ: *«ذهب فالتمس خاتماً من حديد»*. ثم قوله: *«ماذا معك من القرآن؟»*، فكان المهر تعليم القرآن، مما يوضح البعد الرمزي والمعنوي للمهر في الإسلام. وكذلك قصة أم سليم حين جعلت إسلام أبي طلحة مهرها، فقالت: *«إِذَا أَسْلَمَ فَهُوَ صَدَاقِي، فَأَسْلَمَ، فَكَانَ صَدَاقَهَا إِسْلَامُهُ»*.

كما حث النبي ﷺ على التيسير قائلاً: *«أَعْظَمُ النِّكَاحِ بَرَكَةٌ أَيْسَرُهُ مُؤُونَةٌ»*، تأكيداً على أن البركة في الزواج لا ترتبط بارتفاع المهر. ومن حيث المقدار، فقد ورد أن النبي ﷺ لم يزد في صداق نسائه وبناته على نحو 400-500 درهم (اثنتي عشرة أوقية تقريباً)، وهو ما يعكس الاعتدال في التطبيق العملي.

وفي المقابل، نظم الإسلام الأحكام المرتبطة بالمهر في حالات خاصة، مثل الخلع، كما في قصة زوجة ثابت بن قيس حين ردت الحديقة التي أصدقها بها زوجها مقابل إنهاء الزواج. كما أقر مبدأ حماية الحقوق المالية في حال ظهور عيب لم يُعلم به الزوج.

وهكذا لم يُلغِ الإسلام المهر، بل أعاد صياغته ليصبح رمزاً للتكريم والعدل الاجتماعي، بعيداً عن مفهوم البيع أو المقايضة.

ثالثاً: المهر في عصر الخلفاء الراشدين

استمر مبدأ الاعتدال في المهور خلال عصر الخلفاء الراشدين، إلا أن التحولات الاقتصادية الناتجة عن الفتوحات أدت إلى ارتفاع تدريجي في قيم المهور، خاصة بين الطبقات الثرية، نتيجة تدفق الأموال واتساع النشاط الاقتصادي.

وقد واجه الخليفة عمر بن الخطاب هذه الظاهرة بمحاولة ضبطها، فخطب قائلاً: «ألا لا تغالوا بصداق النساء...»، محذراً من المبالغة في المهور. كما قال: «لا يبلغني أن امرأة تجاوز صداقها صدق نساء النبي إلا ارتجعت ذلك منها»، في محاولة للحد من التضخم المالي في الزواج.

غير أن هذا التوجه واجه نقاشاً اجتماعياً بارزاً حين اعترضت امرأة مستتدة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾، فراجع عمر موقفه قائلاً: «صابت امرأة وأخطأ عمر»، وهو موقف يعكس مرونة التشريع الإسلامي وقابليته للنقاش.

كما تشير الشواهد إلى ارتفاع المهور في بعض الحالات، حيث وصلت إلى مبالغ كبيرة، منها ما قُدِّر بعشرات الآلاف من الدراهم، بل إن بعض الروايات تذكر مهوراً ضخمة في زيجات بعض كبار الصحابة، مما يعكس تأثير المكانة الاجتماعية والثراء الجديد.

وفي المقابل، استمر تيار التيسير والاعتدال، كما في زواج سعيد بن المسيب ابنته بمهر زهيد، وكما ورد: *«إن العزب يتزوج بشق درهم»*، مما يدل على استمرار روح البساطة في بعض شرائح المجتمع.

كما تطور القضاء المتعلق بالمهر، فأصبح يشمل ضمانات قانونية أكثر وضوحاً، مثل استحقاق المرأة للمهر بمجرد الدخول، وتحميل الولي مسؤولية أي تدليس يتعلق بعيوب الزوجة، مما يعكس تطور الوعي الحقوقي في الدولة الإسلامية المبكرة.

رابعاً: المهر في العصرين الأموي والعباسي

في العصر الأموي والعباسي تطور مفهوم المهر (الصداق) تطوراً واضحاً، إذ انتقل من كونه حقاً شرعياً بسيطاً يُراعى فيه التيسير كما كان في صدر الإسلام، إلى كونه في كثير من الحالات مؤشراً اجتماعياً واقتصادياً يعكس مكانة الأسر، وقوة النفوذ، ومستوى الثراء، بل وتحول أحياناً إلى أداة سياسية في العلاقات بين البيوتات الحاكمة وكبار الشخصيات. وقد سجلت المصادر التاريخية أخباراً كثيرة عن المهور في هذين العصرين، خصوصاً في البيئات الثرية المرتبطة بالخلفاء والسلطين وكبار التجار، بينما بقيت حالات المهور البسيطة موجودة لكنها أقل شهرة في الروايات التاريخية.

في العصر الأموي، بدأت ملامح ارتفاع المهور بالظهور مع اتساع الدولة الإسلامية ودخول الأموال الكبيرة إلى أيدي بعض الأسر القبلية الحاكمة، خصوصاً في الحجاز والشام. فقد أصبحت الثروة

الزراعية والتجارية والغنائم العسكرية سبباً في رفع قيمة المهور مقارنة بما كان عليه الحال في صدر الإسلام. ومع ذلك، لم يصل الترف في المهور الأموية إلى المستوى الذي سيظهر لاحقاً في العصر العباسي، لكن يمكن ملاحظة بدايات التحول من البساطة إلى التفاخر الاجتماعي. ففي هذا العصر، بدأت بعض البيوتات الكبيرة تُبالغ في تقدير مهور بناتها، ليس فقط لضمان حقوق المرأة، بل أيضاً لإظهار المكانة الاجتماعية للقبيلة أو الأسرة، وهو ما جعل المهر أحياناً علامة شرف اجتماعي أكثر منه مجرد التزام مالي.

ومع انتقال الدولة إلى العصر العباسي، ظهر تحول جذري في طبيعة المهر، حيث ارتبط هذا العصر بازدهار اقتصادي واسع ونشوء مراكز حضارية كبرى مثل بغداد وسامراء، مما أدى إلى تراكم الثروة في يد الطبقة الحاكمة وكبار الموظفين والتجار. وهنا أصبح المهر يعكس بوضوح الفوارق الطبقيّة، فهناك مهور بسيطة عند عامة الناس، مقابل مهور ضخمة جداً عند الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة. وقد أصبحت أخبار المهور في هذا العصر مادة رئيسية لدى المؤرخين، لأنها لم تعد مجرد شأن عائلي، بل حدثاً اجتماعياً كبيراً يرافقه احتفال ونشر للأموال والجواهر وإظهار للترف السياسي.

في طبقة التجار وكبار الموظفين في العصر العباسي، نلاحظ أن المهر أصبح وسيلة لإظهار المكانة المالية. فقد وردت أخبار عن مهور وصلت إلى مئات أو عشرات الآلاف من الدنانير، مثل ما ورد عن يوسف الدمشقي الذي أصدق ابنة قاضي القضاة بمبلغ 700 دينار في منتصف القرن السادس الهجري، وهو ما يعكس استمرار تقاليد المهور المرتفعة في الطبقات الثرية. كما نجد أن بعض كبار التجار مثل عز الدين مقلد بن صفي الدين دفعوا مبالغ ضخمة وصلت إلى 100,000

دينار لزواج داخل العائلة؁ مما يدل على أن المهر لم يعد مجرد التزام شرعي بل أصبح جزءاً من إدارة الثروة داخل العائلات الكبيرة. وغالباً ما كان يُرافق المهر جهاز ضخّم من الملابس والأثاث والجواهر؁ بل قد يفوق الجهاز قيمة المهر نفسه؁ مما يعكس ثقافة الاستعراض الاجتماعي.

أما في طبقة السلاطين في العصر العباسي وما ارتبط بهم من أسر إقليمية قوية مثل البويهيين والسلاجقة؁ فقد تحول المهر إلى أداة سياسية واضحة. فالزواج لم يعد مجرد علاقة شخصية؁ بل وسيلة لتثبيت التحالفات بين القوى السياسية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك زواج الأمير البويهي مؤيد الدولة من ابنة عمه زبيدة بنت معز الدولة؁ حيث قيل إن النفقة في العرس بلغت 700,000 دينار؁ وهو مبلغ ضخّم يعكس حجم الترف السياسي في تلك المرحلة. كما نجد أن السلاطين السلاجقة استخدموا الزواج لتعزيز علاقتهم بالخلافة العباسية؁ مثل زواج طغرل بك من ابنة الخليفة القائم بأمر الله؁ حيث بلغ الصداق 400,000 دينار؁ وترافق ذلك مع تبادل الهدايا الضخمة مثل الخيول والعبيد والجواهر والأراضي. وكان هذا النوع من الزواج يتميز بطابع رسمي احتفالي كبير؁ يشارك فيه القضاة والوزراء وكبار رجال الدولة؁ وتُضرب فيه الطبول وتُنثر الأموال؁ مما يحول المهر إلى حدث سياسي واجتماعي في آن واحد.

وفي مستوى الخلفاء العباسيين؁ بلغ الترف في المههور ذروته؁ حيث أصبحت حفلات الزواج من أهم المناسبات التي تُظهر قوة الدولة وثراءها. ومن أبرز الأمثلة زواج الخليفة المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل؁ وهو حدث شهير في التاريخ العباسي؁ حيث شهد نثر الأموال والجواهر على الحاضرين بشكل غير مسبوق؁ حتى قيل إن الناس كانوا يلتقطون الدنانير والجواهر من الأرض في مشهد استعراضي يعكس قوة الدولة العباسية في أوجها. كما أن هذا الزواج ارتبط بمظاهر فخمة مثل

فرش الحصير بالذهب، وصناعة شموع من العنبر، وتوزيع الهدايا على العامة والخاصة، حتى أصبح العرس حديث الناس وذكره المؤرخون بوصفه رمزاً للترف العباسي.

كما وردت أمثلة أخرى على ارتفاع المهور في العصر العباسي، مثل زواج محمد الجواد من ابنة المأمون، حيث قيل إن الصداق بلغ 2,000,000 درهم، وهو مبلغ يعكس بوضوح البعد السياسي للزواج، إذ كان الهدف منه تقريب العلويين من الدولة العباسية وتهدئة التوترات السياسية. كذلك نجد زواج قطر الندى ابنة خمارويه الطولوني من الخليفة العباسي، حيث قُدر صداقها بمبلغ ضخم جداً وصل إلى 1,000,000 دينار، وترافق ذلك مع جهاز أسطوري من الذهب والجواهر والقصور المتنقلة على طول الطريق من مصر إلى بغداد، بحيث كانت العروس وكأنها في قصر متحرك طوال الرحلة. وقد أدى هذا الزواج إلى تقوية العلاقات السياسية بين الدولة الطولونية والخلافة العباسية، لكنه في الوقت نفسه عكس مدى الترف الذي وصلت إليه مؤسسة الزواج في تلك الفترة.

ومن السمات المهمة في العصر العباسي أيضاً أن المهور لم تعد ثابتة أو محددة، بل أصبحت تخضع لمكانة الشخص وظروفه السياسية والاقتصادية، فبينما نجد مهوراً بسيطة عند الفقهاء والعامة، نجد مهوراً هائلة عند الخلفاء والسلاطين. كما أن بعض المهور لم تعد مالية فقط، بل أصبحت تشمل هدايا وأراضي وامتيازات سياسية، وأحياناً كانت تُربط بشروط مثل المناصب أو الإقطاعات أو النفوذ الإداري. وهذا ما جعل المهر في العصر العباسي يتحول من مجرد التزام شرعي إلى مؤسسة اجتماعية وسياسية واقتصادية معقدة.

وفي المقابل، لم يغلب الجانب الفقهي والتوجيهي في هذا العصر، إذ استمر العلماء في الدعوة إلى التيسير في المهور، مستندين إلى السنة النبوية التي تحث على عدم المغالاة. وقد نقلت المصادر مواقف عن بعض العلماء الذين زوجوا بناتهم بمبالغ بسيطة جدًا، في محاولة لمواجهة ظاهرة الغلو في المهور، لكن تأثير هذه الممارسات ظل محدودًا أمام قوة الترف الطبقي والسياسي.

المصادر والمراجع

1- نـجـمان، ياسين، المهـور في القرن الأول الهجري قراءة في الدلالات الاجتماعية والاقتصادية.

2- فهد، بدري محمد، المهـور عبر التاريخ.